

تأملات في العزلة

تكن لي أي محادثة مع أي كان حتى لا تشغلني عن البحث والتفكير، فكتبت طوال اليوم أعزّل في غرفة مدفاة، وأفترغ تماما للتباحث مع أفكاري". وكانت العزلة شرطا من شروط الإبداع عند نيتشه، عادًا إياها ضرورية من وقت لآخر لترتيب أفكاره ويعثرها الإغبياء من حول المدع والمفكر. ومما قاله في هذا السياق "إن العزلة ضرورية لتوسع الذات وامتلاكها، فالعزلة تشفي أدواها وتشد عزائمها". وقد عاش نيتشه حالة من الإغتراب في المجتمع الألماني، فعبّر عن ذلك بقوله "أيتها العزلة أنت وطني".

وبالرغم من أن الفيلسوف مارتن هايدجر أقر بأن الأنا لا تفهم وجودها إلا من خلال عنايتها بالآخر، بغض النظر عن البعد الفيزيقي لهذا الآخر، فقد ذهب إلى أن العزلة ليست مسافة تضعها بيننا وبين الآخر، ولا هي مجرد مفهوم كمي يقاس بالامتار والأذرع، بقدر ما هي جسر يوصلنا إليه.

وتحدث الفيلسوف والشاعر الأميركي رالف والدو إمسون عن مفهوم العزلة برؤية مختلفة إلى حد ما، مبيّن أن الطبيعة تداعب خيال الإنسان عندما يكون مفردًا بشكل لا يحدث عندما يكون برفقة آخرين، وطالب المعلمين بلفت أنظار تلاميذهم إلى أهمية العزلة كسلوك معتاد، لأن باستطاعتها أن تحول الأفكار المجردة إلى واقع ملموس.

وشكلت فكرة العزلة مركز الفكر لدى المنظرة الألمانية حنة أرندت، التي هربت من النازية إلى الولايات المتحدة، وقضت معظم وقتها لدراسة العلاقة بين الفرد والمدينة. وأكدت في كتابها "المسؤولية والاحتكام" أن العزلة يمكن أن تكون الحالة الطبيعية لكل أنواع العمل الذي تركز فيه إلى درجة أن حضور الآخرين لا يمكنه إلا أن يربكها، وأن العزلة تمكنها من تأمل أفعالها وتطور وعيها، والهرب من نشاز الجمهور، والإصابت في النهاية إلى نفسها.



العزلة الاختيارية يعتبرها أغلب الفلاسفة والشعراء والأدباء والمبدعين بصفة عامة من شروط التفكير والإبداع الضرورية

وفي تاريخنا العربي مال أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة، والخلوّة عن الخلق، وتفضيلها على المخاطبة، على ما يورد الغزالي، مثل سفيان الثوري، إبراهيم بن أدهم، داود الطائي، فضيل بن عياض، سليمان الخواص، يوسف بن اسباط، حذيفة المرعشي، وبشر الحافي. وأشاد العديد من المفكرين والأدباء العرب المعاصرين بالاعتكاف أو العزلة الإرادية، كخباز نقيس ووجودي ومرعفي، مثل جبران خليل جبران الذي قال "إن النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد، فتهجر الناس مثلما يتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى يبرأ أو يموت". وعلى الصعيد الإبداعي تناول العديد من المبدعين في العالم، عبر أعمال أدبية وفنية، شخصيات متخلبة أو مأخوذة من الواقع، عاشت حالات الاعتزال الإرادي والقسري عن مجتمعاتها في فضاءات شتى لأسباب ودوافع مختلفة، لكنني سأؤجل الكتابة الضوء على نماذج مختارة منها.



من شروط الإبداع العزلة (لوحة للفنان طلال معلد)

عواد علي
كاتب عراقي

تدعونا العزلة التي نعيشها هذه الأيام، مرغمين بسبب تفشي وباء كورونا الخطير في العالم، إلى النظر فيها ومراجعة أنماطها المختلفة في حياة البشر، على غرار ما نفعل مع العديد من الظواهر التي تنتج عنها مأس كبرى كالحروب والفيضانات والمجاعات.

ثمة أنواع من العزلة، منها ما هو إرادي ومنها ما هو قسري أو لا إرادي، وتعرف العزلة الإرادية بأنها تلك العزلة التي يؤثرها الفرد ليختلي بنفسه، وينصرف إلى التأمل، نشدانا لضالته، أو بحثًا عن حكمة عميقة، أو إدراك لما خفي عن العقول والأنظار وأسرار الوجود، أو بهدف تأليف كتاب، أو إنجاز عمل إبداعي، أو ليظل بمنأى عن الواقع المحيط به، ويتحرر من الانصياع لإكراهاته، ويتجنب منغصات الحياة والعراقيل التي يضعها الآخرون أمامه، أو بسبب شعوره باليأس والخذلان والإغتراب وعدم الانتماء، وبأنه مسلوب الذات ومستهلك.

أما العزلة القسرية فهي تلك التي تُفرض على الفرد بالقوة مثل عزلة السجن عاقبا على جرم ارتكبه، أو بسبب موقف سياسي أو رأي معارض للسلطة، ومثلها الإقامة الجبرية في المنزل، وهي عقوبة مفيدة للحرية تُفرض عادة على سياسيين وناشطين ضد سلطة قمعية أو سلطة احتلال، وتسمى أيضا الحبس المنزلي، والاحتجاج، وأخيرا العزلة الجماعية التي تفرضها الدول على مواطنيها، والمتعلقة بملزمة بيوتهم في حالات انتشار الأوبئة للحيلولة دون اختلاط الأصحاء بالمصابين.

وفي مجال الدين تحدث سفر الأمثال في العهد القديم من الكتاب المقدس عن نوعين من العزلة، الأولى هي "العزلة المقدسة"، التي يختلي فيها المرء إلى نفسه، معتزلا الشر والأشرار حتى لا يصيبه ضرر، ويعيد تقييم نفسه، وعمل الله فيه، والثانية هي "العزلة الشريفة"، التي يعتزل فيها المرء الحق الإلهي، وينسحب من الجماعة المقدسة لمجد نفسه أو لإشباع شهواته.

وتكتب الفلاسفة والأدباء، على مر التاريخ، عن إيجابيات العزلة الإرادية في آثارهم الفكرية والإبداعية، كما اختار بعضهم أن يعيشها بنفسه تحقيقا لغايات ما وجودية أو معرفية أو إبداعية. ولعل أول من يُذكر في هذا الصدد هو الفيلسوف اليوناني أبيقور، الذي رأى في الفلسفة وسيلة لتحقيق أسنى ما يصبو إليه الإنسان في الحياة وهو السعادة والطمأنينة والسلام، وذلك بوقاية بدنه من الألم، وتخليص نفسه من القلق بالقضاء نهائيا على كل مصادر الخوف والمعاناة، وارتبط باسمه مبدأ اللذة، ويُقال إنه انتخب الفلاسفة الذين سبقوه، واعتزل جمهور العامة الذين يعتقدون بأن الآلهة تراقب البشر، وأنه ينبغي خشية الموت. ومن شدة تعطش أفلاطون للمعرفة والمثل العليا دعا في كتابه "الجمهورية" إلى التأمل والعزلة والتفكير، ورأى الفيلسوف الفرنسي ميشيل دي مونتيني، الذي عاش في القرن السادس عشر، أن الحاجة إلى العزلة تكمن في التخلص من القيود التي يفرضها الآخرون، وكانت كتاباته الأولى خلاصة لفترة من العزلة فرضها على نفسه ليعيش حياة يرف عليها الهدوء وتخصها القراءة.

ومال أبو الفلسفة الحديثة ديكرت إلى الاعتزال عن الناس ردا من الزمن لينصرف إلى تأملاته الفكرية، وكشف عن ذلك قائلا "حين كنت في ألمانيا، لم

التاريخ ليس سرد بطولات

عبد الجليل بوقرة: الشعوب تكتب تاريخها بنوع من الأسطورية



ليس التاريخ مجرد سرد لملامح وانتصارات

تختلف بمكوناتها وبطريقة إعدادها، ثم شارك في سباق للعدو بين الجنود بهدف الحصول على الجائزة وهي رخصة لزيارة أمه بريف مدينة قفصة بالجنوب الغربي التونسي، لكن يكتشف المشرفون على السباق في القمودي عذاء موهوبا قادرا على الذهاب بعيدا في تلك الرياضة، فعلا سراعان ما أصبح بطلا أولمبيا في أولمبياد طوكيو باليابان سنة 1964، وتنازل بعد ذلك للتوابع في عدة تظاهرات دولية.

أما في قسم الشخصيات، فيعرف المؤرخ جماعة "تحت السور"، وهي مجموعة من المثقفين، نذكر منهم الأديب والصحافيين والمسرحيين والرسامين. وكانت تعقد لقاء يوميا بمقهى "تحت السور" بتونس العاصمة، برزت هذه المجموعة في عشرينيات مفضلة في تاريخ تونس وفي العالم أيضا، وهي ثلاثينات القرن العشرين، وتحديدًا بين سنتي 1929 و1943. وكانت الجماعة رافضة للسائد التقليدي. كانت عاصمة عمل أفرادها على تثقيف أنفسهم والإطلاع على ما وصلت إليه الثقافة والفنون في العالم الغربي من أفكار جديدة وأساليب ومناهج أدبية وفنية متطورة وغير معروفة في العالم العربي، وكانت مجموعة "هامشية" و"بوهيمية"، رافضة لتلقاها المركز وأخلاقه، ووجهيهما الاستعماري والمحلي التقليدي المحافظ.

كتابة التاريخ

اهتم ببعض الأحداث التاريخية التي ترسخت في الذاكرة التونسية، ملتزما بالمقاييس المعتمدة في اختيار الأحداث بكتاب يعني بمواقع من الذاكرة، حيث يكون الحدث قصيرا في الزمن، بين لحظة وبعض الأشهر، ولكنه يبقى محفورا في الذاكرة لفترة طويلة في الزمن نظرا لتداعياته ولدوره الحاسم في التحولات التاريخية.

ولم يغفل بوقرة عن البحث حول الذاكرة الجمعية المتصلة ببعض الجمعيات والمنظمات، منها ما يخص "ذاكرة المثقفين" كمنظمة الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان ومنها ما تحفظه الذاكرة الشعبية، مثل الجمعيات الرياضية، والتي شكلت خاصة أثناء الفترة الاستعمارية أهم وسائل الحفاظ على الهوية التونسية ورفض سياسة الاندماج. يحتوي البحث الذي أعده عبد الجليل بوقرة على فصل يخص بعض الأكلات التونسية مثل "البريكة" التونسية، و"البريكة" وجمعها "بريك"، هي أكلة تونسية منتشرة في كل الجهات ولدى كل الطبقات الاجتماعية، وهي من المفضلات القارة في كل الموائد التونسية في شهر رمضان. ولئن نجد "البريك" في موائد بعض البلدان المتوسطة مثل الجزائر واليونان وتركيا، فإن البريكة التونسية والمختصين في علم الاجتماع والأدباء.

يعتبر الدكتور عبد الجليل بوقرة من أبرز المؤرخين التونسيين، ومن أكثرهم حضورا في مجال البحوث والدراسات الأكاديمية حول التاريخ التونسي المعاصر. وكان أول من أصدر بحثا معمقا عن الحركات اليسارية التونسية في الستينات من القرن الماضي، مثل "أفاق" و"العامل التونسي". "العرب" كان لها هذا الحوار مع المؤرخ حول مشروعه الجديد "مواقع الذاكرة".

واسعة من التونسيين تتماهى معها، وترى فيها جزءا من ذاكرتها الجماعية البعيدة والقريبة العالقة بتاريخ الوطن وبجياة أهله. وقد تم اختيارنا لـ160 موقعا من الذاكرة التونسية، مع إقرارنا بتعدد الذاكرة بقدر التعددية الاجتماعية والسياسية والثقافية في تونس، وحاولنا قدر الإمكان، التزام الموضوعية واحترام "الديمقراطية" على مستوى الذاكرة.

يقول بوقرة "كان نصيبي من المواقع عشرين موقعا موزعة بين معالم وأحداث ومدن ومهرجانات وقصائد شعرية وشخصيات وجمعيات وأحزاب ومؤسّسات. وساقوم بالتعريف بثلاث مدن تونسية كانت عواصم لتونس في فترات تاريخية مختلفة وهي: قرطاج، عاصمة الفينيقيين ثم أفريقية الرومانية، والقيروان عاصمة الأغالب في العهد الإسلامي، والمهديّة عاصمة الفاطميين قبل تحولهم إلى مصر.

لقد ظلت تلك المدن تتداول دور العاصمة إلى حدود القرن الثالث عشر ميلادي عندما اتخذ الحفصيون مدينة تونس عاصمة لإمارتهم.

ويضيف المؤرخ التونسي قائلًا "أثناء التعريف بهذه المدن والمعالم لم أقصر على المعلومات الموثقة فقط، بل نقلت الأساطير الشعبية المرتبطة بتأسيسها، مثل أسطورة جلد الثور أثناء تأسيس قرطاج من طرف الأميرة عليسة القادمة من صور، وأسطورة طرد الأفاعي والسحابة من طرف عقبة بن نافع أثناء تأسيسه للقيروان. كما أعزف بشخصيات بقيت في ذاكرة التونسيين ولعبت أدوارا هامة في مجالات مختلفة".

ويتابع "من الشخصيات تناولت مثلا الفنان زوّول جورنو ذلك المغني والملحن من عائلة يهودية تونسية، والذي انتشرت أغانيه في كل الأوساط التونسية وحققت شهرة لا مثيل لها في تونس وخارجها، نظرًا إلى تخصصه في اغاني الأعراس والحج والولادة والختان و'بار متسفا' (هو حفل يهودي ديني يقام عند بلوغ الشاب اليهودي 13 سنة من العمر). يعرّف بوقرة أيضا، بشخصية الصحافي العصامي الذي نافس الزعماء السياسيين شعبيتهم منذ أن أصبح "حكواتيا" بالإذاعة التونسية، وكان يبدو كأنه قادم من أزمان غابرة، من أعماق ألف ليلة وليلة.

كما قام بوقرة بالتعريف بالبلبل الأولمبي التونسي محض القمودي، القادم من وسط شعبي ريفي ليخترط في

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

يكتب المؤرخ عبد الجليل بوقرة مع مجموعة من الباحثين والمؤرخين التونسيين على إعداد كتاب حول "مواقع الذاكرة التونسية" تحت إشراف المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، بالاشتراك مع مركز النشر الجامعي بجامعة منوبة.

ومن المعلوم أنّ مصطلح "مواقع الذاكرة" مستحدث جديد في العلوم الإنسانية منذ بداية ثمانينات القرن العشرين عن طريق مبتكره المؤرخ الفرنسي بيار نورا الذي أشرف على إصدار مؤلف في ثلاثة أجزاء، بين سنتي 1984 و1992، موسوم بـ"مواقع الذاكرة".

التاريخ قراءة موضوعية لواقع متحرك في صعود ونزول وفي تقدم وتقهقر، يتضمن الانتصارات كما يتضمن الانتكاسات

ويعرّف نورا مصطلح "مواقع الذاكرة" بأنه "يشمل في معناه الشامل كل الأشياء المادية والملموسة والمحددة جغرافيا، ويشمل أيضا كل ما هو مجرد وما أنتجته الثقافة، بما يعني أنه يشمل المعالم والشخصيات الهامة والمتاحف والأرشيف والرموز والعملية والأحداث والمؤسّسات.

شخصيات من الذاكرة

كانت مجموعة من الباحثين، في اختصاصات مختلفة، قد بادرت بالتعريف بمواقع تونسية، من خلال مؤلف "مواقع الذاكرة"، الذي تضمن في جزئه الأول الصادر سنة 2018، التعريف بـ184 موقعا بالبلاد التونسية وتوزعت بين عشرة مجالات: الأماكن والمعالم والأحداث والكتب والأكلات والجمعيات والمجموعات والشخصيات والأناشيد والرموز.

عن الجزء الثاني، وهو يصدر الإنجاز، يقول عبد الجليل بوقرة "نحن واصلنا على نفس المنهج، حيث التزمنا بأن تكون "مواقعنا" متعددة كتعدد الذاكرة الجمعية، لم نتقيد في اختيارها بقبول أيديولوجية أو سياسية حزبية أو جهوية، إذ أننا اخترنا مواقع قدرنا أنّ نسبة